مراكز النشاط الفكري ببلاد المغرب الإسلامي (من القرن الثاني إلى أواخر الثالث الهجري/ الثامن إلى أواخر التاسع الميلادي)

د/ بوعلام صاحي
قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2

كثرت مراكز النشاط الفكري ببلاد المغرب الإسلامي ابتداء من القرن الثاني حتى الثالث الهجري. وقد كانت هناك أسباب متعددة على رأسها وجود عدد من الدول المستقلة عن الخلافة العباسية كالأغالبة بالمغرب الأدنى والرستميون بالمغرب الأوسط والأدارسة بالمغرب الأقصى وبنو مدرار بسجلماسة. وكان لكل دولة من هذه الدول عاصمتها وبلاطها. وكان حكّام كل دولة يهتمون بجمع العلماء في بلاط عاصمتهم. ومن أشهر هذه المراكز العلمية :

أ. **القيروان** : كانت القيروان أولى المدن التي أسّسها العرب المسلمون في المغرب، وظلّت طيلة قرون عديدة مركزا للإشعاع الديني والثقافي، إلى جانب كونها عاصمة سياسية للمغرب لمدة طويلة، والى جانب القيروان كانت هناك مراكز أخرى للثقافة والآداب وصل بعضها إلى مرتبة مرموقة في الميدان الثقافي مثل تاهرت وفاس، فكانت القيروان ترسل إلى مختلف هذه العواصم بعلمائها، وبالمقابل كان يفد عليها طلابها من جميع أنحاء المغرب لتلقي العلم عن علمائها.

لقد استفادت القيروان من العدد الهائل من العلماء المشارقة الذين وفدوا عليها، كما كانت على صلة دائمة بالمراكز الكبرى للدراسات الإسلامية بالحجاز (مكة والمدينة) والشام والعراق. ومن هنا كانت العناية والاهتمام متجهين نحو العلوم الدينية، من فقه وتفسير وحديث.

وامتاز النشاط الثقافي في القيروان بكثرة الفقهاء والمحدّثين، وتعدد المجالس العلمية، حيث أصبحت في عهد الأغالبة مركزا ذائع الصيت ليس في

المغرب والأندلس فحسب بل في المشرق أيضا[1]. ومنذ القرن الثاني للهجرة/الثامن الميلادي، وبظهور الإمام سحنون بن سعيد سنة 226هـ/840م أعطى القيروان دفعا جديدا في مسارها الثقافي، ومنذ ذلك الوقت أخذ عدد طلاب القيروان بالتزايد، وذلك لأسباب منها :

- بروز عددكبير من العلماء.
- اهتمام الأغالبة بالعلم وتشجيعهم له.
- وفود عدد من طلاب المغرب الإسلامي على القيروان، وكان ضمنهم علماء جمعوا بين العلم والتجارة، حيث حملوا معهم سلعهم التجارية إضافة إلى علومهم ونشروها بالقيروان وفي المناطق التي مروا بها. فقد بث العالم أبو يحي بن حماد والسلجماسي علمه بالقيروان، إضافة إلى تجارته[2].

وقد وفد عدد من طلاب الأندلس إلى القيروان لتلقي العلوم على يد علمائها، فقد ذكر ابن الفرضي أن قاسم بن أصبغ "سمع بالقيروان من أحمد بن يزيد المعلّم وبكر بن حماد التاهرتي"، كما أن عبد الملك بن أيمن "شارك قاسم بن أصبغ في رجاله كلهم"[3].

فكان ما نقله بن أصبغ عن بكر بن حماد كتاب مسند بن مسرهد الذي يقع في عشرة أجزاء[4].

وكان من هؤلاء الطلاب الأندلسيين من وفد خصيصا للقيروان لتلقي العلم عن الإمام سحنون، فقد ذكر المالكي أن العالم سليمان بن سالم رأى "يوم مات سحنون مشايخ من أهل الأندلس يبكون ويضربون خدودهم كالنساء"[5].

ولا غرابة في ذلك، فقد كان الاتصال والتفاعل الحضاريين بين الأندلسيين والقيروانيين شيئا مألوفا، وذلك لامتزاج عناصر سكان بلاد المغرب والأندلس، خاصة إذا علمنا أن عددا من سكان الأندلس الذين استقروا فيها- أي في الأندلس- بعد الفتح كانوا من أهل المغرب[6].

وكان تأثير سحنون واضحا في الفقه الأندلسي، ذلك أن هذا التأثير لم يكن عن طريق حضور بعض الأندلسيين من أجل تدبيج المدوّنة فحسب، بل

كان أيضا عن طريق التلمذة المباشر[7]، وأنّ شخصية الإمام سحنون سرعان ما فرضت نفسها، فأصبحت بفضله القيروان دار علم تشد لها الرحال[8].

ب. تونس : لقد امتازت تونس بنشاطها الفكري في بداية القرن الثاني الهجري /الثامن الميلادي، واستقطبت أنظار الطلاب إليها من مختلف عواصم بلاد المغرب الإسلامي، من أجل التفقه على علمائها البارزين أمثال علي بن زياد (ت 183هـ/799م) الذي اشتهر كونه واضع أسس المدرسة المالكية بالمغرب، فقد جاءه البهلول بن راشد (ت 182هـ/798م) من القيروان ليسمع منع العلم والمعرفة[9]، وكان "يكاتبه إلى تونس يستفتيه في أمور الديانة"[10]، أي في أمور فقهية أشكلت عليه.

ولما كانت رحلة العلماء المغاربة في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي إلى المشرق لها أثرها في ازدهار العلوم الدينية بإفريقية، لم يكن هؤلاء العلماء يذهبون نحو وجهتهم بالحجاز والعراق ومصر والشام وهم خالون من العلوم، بل كانوا يتلقون العلم في إفريقية أولا، ثم يشدّون الرحال نحو المشرق لتوسيع دائرة معارفهم العلمية، فقد سمع أسد بن الفرات موطأ الإمام مالك من علي بن زياد (ت 183هـ/799م) بتونس، قبل ذهابه إلى المدينة وقراءته على مالك بن أنس[11].

وعلى الرغم من أن القيروان بدأت تأخذ مكانة تونس العلمية شيئا فشيئا ابتداء من منتصف القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، فقد حافظت تونس نسبيا على نشاطها العلمي، حيث التحق عدد من طلابها بالقيروان من أجل التفقّهوتلقي العلم عن علمائها وفقهائها[12].

يستنتج مما سبق أن مركزي القيروان وتونس العلميين كانا منطلق الحركة العلمية والفكرية التي عرفتها إفريقية في القرنين الثاني والثالث الهجريين/الثامن والتاسع الميلاديين.

ج. تاهرت: برزت تاهرت علميا في هذه الفترة وذلك لأسباب متعددة على رأسها تسامح أئمة الدولة الرستمية وسيادة حرية الفكر فيها، حيث أدّى ذلك إلى شيوع مختلف المذاهب الدينية التي كانت معروفة كالحنفي والمالكي

والمعتزلي بعاصمتها تاهرت. وقد جعل هذا الأمر منها مركزا للدراسات الإسلامية المتنوعة، وأصبحت غاصّة بالعلماء والحجاج القادمين أو الخارجين منها، وكان لهؤلاء دور كبير في نقل مختلف العلوم إلىتاهرت، كما أنّ جماعة القرويين في تاهرت ساهمت هي الأخرى في النشاط الفكري والعلمي، حتى أن تاهرت كانت تعرف ببلخ أو عراق المغرب[13]، وقد ظهر فيها نتيجة لذلك كثير من العلماء كالعالم محكم الهواري وابنه الشيخ هود بن محكم وعبد العزيز الأوز (الأوس) الذي كان صاحب فقه ورحلة نحو الشرق[14]. وكثر العلماء في المنطقة، ولكثرتهم في جبل نفوسة بالذات أن كان الناس يأتونه من جهات المغرب والمشرق، فكانت قرية "ويغو" في جبل شروس أكثر نواحي جبل نفوسة علما، وكان من علمائها البارزين الشيخ مهدي النفوسيوعمروس بن فتح[15].

وكان هناك احتكاك في مجال الثقافة بين بعض مدن الدولة الرستمية وبقية مناطق ومدن الشمال الإفريقي، كمدن زواغة ولبدة وتاورغاومغدامس وسرت. كما قدم عدد من علماء المشرق إلى هذه المدن، مما كان له أثره في إثراء مركز تاهرت الثقافي، نتيجة احتكاك علمائها بعلماء المشرق[16].

وكانت هناك صلة علمية وثيقة بين تاهرت والقيروان، فقد أدّى انتقال العلماء الدائم بينهما إضافة إلى انتقال التجّار إلى تبادل ثقافي، فقد كان تجار إفريقية على اتصال دائم بتاهرت، فقد سارت قوافلهم نحو تاهرت أو مرورا بها نحو سجلماسةوأودغست، وأن شهرة تاهرت في ميدان التجارة استقطب إليها التجار من الكوفة والبصرة ومصر وغيرها، كما وفد على تاهرت علماء من الأندلس، خاصة إذا علمنا أن موقع تاهرت كان على الطريق من الأندلس والمغرب الأقصىإلىسجلماسة. كما انتقلت علوم بكر بن حماد إلى الأندلس، إذ أن أبا بكر بن اللباد - الذي كان جليسا لبكر بن حماد، القى دروسه على عدد من الطلاب كان من بينهم أندلسيين مثل محمد بن عبد الله بن ابي عيسى[17]، فيكون هؤلاء العلماء قد أثّروا وتأثّروا بعلماء تاهرت، أثناء تنقلهم بين تاهرت والأندلس سواء للعلم أو للتجارة.

وكما كان هناك تأثير متبادل بين تاهرت والأندلس، فقد كان هناك تأثير مشابه بينهما وبين فاس، وتمثل في أخذ واستفادة علماء فاس من العلوم التي كانت سائدة فيها. فإن العالم دراس بن اسماعيل الذي سمع عن شيوخ بلده في فاس وبإفريقية عن ابي بكر بن اللباد أثناء ذهابه إلى القيروان، يكون قد مرّ بتاهرت وتعرّف إلى علمائها.

ومما لاشك فيه أن وجود المالكيين والأحناف خاصة، والمعتزلة بتاهرت، وتعايشهم مع بعضهم، قد مكّن التاهرتيين من إثراء ثقافتهم والتبحّر في شتى مجالات المعرفة[18].

ونتيجة لما ذكر فإن تاهرت عرفت ازدهارا ثقافيا ملحوظا في هذه الفترة. مكّنها من أن تكون مركزا علميا نشطا في المغرب الأوسط. ومن مدن الدولة الرستمية الشمالية التي عرفت بنشاطها الثقافي عدا تاهرت، نذكر مدن ميليانةوتنس، والمدينة الخضراء، وسوق إبراهيم، وإفكان، وبني واريغن ومستغانم، وقلعة هوارة ووهران وتامزغران، وتاغربيت، والغزة وأوزكي، ومعسكر، ومدينة شلف، ومدينة رها، وقصر الفلوس، ومدينة يلّل، ومدينة جبل توجان، وجبل زلاغ، وغيرها[19].

وكانت وارجلانإحدى المدن الثقافية بالمغرب، إذ نشأ بها علماء كبار أمثال الشيخ أبو صالح جنون ابن يمريان، وأبو سهل النفوسي، ويعقوب بن سيلوس السدراتي الذي "كانت قراءته على الأئمة بتاهرت"[20].

د. **سجلماسة** : عرفت سجلماسة في هذه الفترة، بكونها مكرزا للدراسات الإباضية، بحكم مذهبها الخارجي، وصلتها الوثيقة بتاهرت التي ازدهرت فيها العلوم الدينية على المذهب الإباضي[21].

ولم تقتصر مكانة سجلماسة على علوم المذهب الإباضي بل تعدّتهإلى غيره. كما أنها تأثرت بالتيارات الثقافية المختلفة وأثرت فيها، من ذلك ما ذكره القاضي عياض أن أحد علماء سجلماسة وهو أبو يحي حماد بن يحي السجلماسي قد أتى بالفقه المالكي إلىسجلماسة أثناء وجوده بالقيروان[22]، حيث كان أول من أتى بفقه عبد الملك بن الماجشون أحد كبار تلاميذ الإمام

مالك بالحجاز إلى بلده[23]. ولم يكن دخول المذهب المالكي إلىسجلماسة يعني انتشاره فقط بل كان يرافقه في الغالب انتشارا للدراسات الفقهية.

وفيما يخص ارتباط سجلماسة ثقافيا مع غيرها من المدن المغاربية، يفيدنا الدرجيني أن رجلا من أهل الدعوة يدعي ابن الجمعي، جاء من بلاد المشرق تاجرا فوصل سجلماسة[24]، فإذا علمنا أن الطريق إلى سجلماسة تمر بتاهرت، أمكننا القول أن ابن الجمعي هذا كان أحد العلماء التجار الذين وثّقوا صلة الثقافة الدينية بين تاهرتوسجلماسة، وكان مع ابن الجمعي في رحلته أبو الربيع سليمان بن زرقون ومخلد بن كيداد الذان تفقها على يديه في سجلماسة[25].

كما أن بن كيداد "درس في تاهرت على شيوخ الخوارج"[26]، وهذا يدل على أنه كان من بين العلماء الذين ينتقلون بين تاهرتوسجلماسة، كما ساهم في نقل العلوم الدينية بين مدن المغرب.

ه.فاس : شهدت فاس حركة علمية وأدبية نشطة في عصر الأدارسة، فقد كان معظم أمرائها من العلماء، إضافة إلى مواليهم، فإدريس الأول نفسه كان "فصيحا بليغا، أديبا عالما بكتاب الله قائما بحدوده راويا للحديث"[27]، كما كان مولاه راشدا عالما بالعلوم العقلية والنقلية من فقه وتفسير وحديث وبلاغة، ولم يكن إدريس الثاني يقل عنهما علما، فقد أورد بن الآبار نماذج من شعره[28].

وقد أدّى كون الأمراء الأدارسة من العلماء، وحبّهم للعلم، أن عملوا على تنشيط الحركة الثقافية في الدولة.

وقد ساير انتشار الإسلام انتشار الثقافة العربية، فمنذ القرن الثاني للهجرة/ الثامن الميلادي غدت فاس من العواصم الثقافية الهامة بالمغرب، حيث تمثلت فيها الثقافة العربية بوجه عام[29].

وقد ساعد فاس على ذلك، إضافة لانتشار الإسلام واللغة العربية، صلاتها بالمدن المغربية والأندلسية كقرطبة والقيروان، والتبادل الثقافي الذي كان بين هذه المدن. فقد وفد على فاس عدد كبير من الأندلسيين واستقروا بالجانب الشرقي من المدينة، وقد عرف مكانهم باسم (عدوة الأندلس). كما

وفد عدد مماثل من أهل القيروان واستقروا بالجانب الغربي منها، وعرف مكانهم باسم (عدوة القرويين)[30]. فكان لقدوم هؤلاء الأقوام على مدينة فاس أن ساهموا في شتى المجالات الحضارية، حيث كان ضمنهم العلماء والفلاحون والصناع الذين وظّفوا مهاراتهم ومعارفهم في خدمة فاس، التي غدت مركزا ثقافيا هاما استقطب إليه طلابا من جميع أنحاء المغرب.

وكان أعظم معهد عرفت به فاس واختص بنشاطاته الثقافية المتعددة في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، هو جامع القرويين الذي أسّسته فاطمة أم البنين الفهرية القيروانية سنة 255هـ/868م. وقد زادت أهمية هذا المعهد لتنوع الدراسات الإسلامية فيه، ووفود الطلبة إليه من جميع أنحاء المغرب والأندلس، خاصة بعد أن نقل إليه الفقيه إسماعيل بن إدريس الفقه المالكي وبدأ يستقل شيئا فشيئا بعلومه عن القيروان.

- أشكال النشاط الفكري:

أمّا أشكال النشاط الفكري الذي طبع هذه المراكز في هذه الفترة فتمثل خاصة في المناظرات والتأليف.

أ. **المناظرات** : كثيرا ما كانت تعقد مجالس المناظرات والمجادلات حول عدة مسائل فقهية بين فقهاء مالكيين وأحناف من جهة، وبين مالكية ومعتزلة، وبين أحنافوإباضيين من جهة أخرى، وحتى بين المالكيين أنفسهم. وغالبا ما كانت تعقد هذه المناظرات في بلاط الأمراء.

ويؤكد قيام هذه المناظرات في بلاط الأمراء القصة التي أوردها أبو العرب في طبقاته، والتي دارت بين أحد رجال الحديث وهو تابعي يدعى يزيد بن أبي منصور وبين الوالي محمد بن الأشعث في صحّة حديث نبوي، وأفحمه حتى أغضبه، ثم فسره له، فقبل منه بن الأشعث معجبا بضبطه بالرغم من ضعفه وهرمه[31].

ولم تكن المناظرات حكرا على بلاط الأمراء، بل كانت تحدث في أماكن متعددة، في منازل العلماء والفقهاء، في مراحل السفر، وفي كل مكان. وكانت بين فئات مختلفة، بين المسلمين وأهالي الذمة، وبين أصحاب المذاهب

المختلفة. وقد برز في المناظرات العلمية الدينية خاصة عدد لا باس به، منهم عبد الله بن فروخ الذي انتصر في مناظرته على زفر بن الهذيل في مجلس أبي حنيفة، وكان زفر يزدري بن فروخكونه مغربيا[32]، ومع أن المصادر تذكر حدوث هذه المناظرة إلاّ أنّها لم تورد التفاصيل التي دارت حولها.

وكثيرا ما جرت مناظرات بين المالكية والأحناف، ومن اعتنق الاعتزال في حضرة الأمراء، من ذلك المناظرة التي دارت بين الإمام سحنون وبن ابي الجواد حول مسألة خلق القرآن، وقد كان بن ابي الجواد معتزليا يقول بهذا القول. فقد جاء الأمير زيادة الله (ت223هـ/837م) بالإمام سحنون وأقعده للمناظرة بعد أن جمع له قواده وقاضيه بن أبي الجواد، وسألهم عن القرآن، فقال سحنون:"أما شيء أبتدئه من نفسي فلا، ولكني سمعت من تعلّمت منه وأخذت عنه، كلهم يقولون: القرآن كلام الله غير مخلوق. فقال بن أبي الجواد: كفر، اقتله ودمه في عنقي"[33]، وقد وافقه جماعة كانوا يحضرون المجلس، إلا أن الأمير أمره بلازمة بيته، وأن يكف عن الإفتاء[34].

وهكذا يتضح أن المناظرات بين المتمسكين بحرفية القرآن والسنة وبين علماء الكلام كانت تحدث بالمغرب، وأن مسألة خلق القرآن أثيرت بنفس الشدّة التي أثيرت بها في المشرق، واحتد فيها النقاش، وانقسم الناس حولها إلى فريقين، قائلين بخلق القرآن وهم المعتزلة ومعارضين لذلك وهم أهل السنّة، الذين كان موقفهم شديدا ممن يقول بذلك[35]، وعلى الأخص المالكية الذين كان رفضهم لهذا الرأي واضحا، وتعرض كثير من فقهاء المالكيين إلى الضرب والسجن والتعذيب، حتى صار من تحضره الوفاة من هؤلاء الفقهاء يوصي بأن يكتب على قبره : فلان بن فلان كان يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأن كلام الله غير مخلوق، متحديا بذلك المعتزلة[36].

لقد تطورت المدرسة المالكية بعد الإمام سحنون، وأصبح ممثلوها يهتمون بفن الجدل، إضافة إلى اهتمامهم بالفنون والعلوم الأخرى، وفي مقدمة هذه الطبقة نجد شخصية أبي عثمان سعيد بن الحداد (ت302هـ/914م) الذي عنى

منذ صغره بعلم الكلام والجدل، والقول بالنظر والحجة، وقد تزعّم المرحلة الجديدة، في تاريخ المدرسة المالكية المغربية، كما تخرج على يديه عدد كبير من علماء المغرب، من بينهم ابراهيم بن محمد الضبي المعروف بابن برذون الذي "كان يذهب مذهب النظر من رجال أبي عثمان سعيد بن الحداد"[37].

وكان لأبي عثمان سعيد بن الحداد موافق حاسمة مع دعاة الشيعة الفاطميين حيث تصدّى للفاطميين بمناظراته لهم، مدافعا عن السنّة، يتجلّى ذلك في مجلس المناظرة الذي جمعه مع أبي عبد الله الشيعي، إذ قال أبو عبد الله لأبي عثمان : "أنتم تفضلون على الخمسة أصحاب الكساء غيرهم (يعني بأصحاب الكساء محمد صلى الله عليه وسلّم والحسن والحسين وعليّا وفاطمة، ويعني بغيرهم أبا بكر)، فقال أبو عثمان : أيّما أفضل خمسة سادسهم جبريل أو اثنين الله ثالثهما، فبهت الشيعي"[38].

هكذا وردت هذه المناظرة عند الدباغ. وهي في رأيي غير مقنعة لأن السنّة لا يفضلون أبا بكر على محمد صلّى الله عليه وسلّم، ومن الواضح أنها موضوعة، ولكنها مع ذلك تعطي فكرة عن قيام المناظرات ومثلما كان الأئمة منذ عهد الإمام عبد الوهاب الرستمي يستعان بهم في الفتوى وتسيير بعض الخطط الشرعية مثل القضاء والحسبة، كانوا يستجلبون أيضا للرد على الفئات المعارضة ولإدارة حركة الجدل. فلما عزمت المعتزلة على محاربة الإمام عبد الوهاب، أرسل هذا الأخير إلى عامله على جبل نفوسة يطلب منه أن يرسل له جيشا "يكون فيه رجل ذو علم بفنون الرد على المخالفين، ورجل عالم بفنون التفسير، ورجل شجاع بطل يبارز الفتى المعتزلي الموصوف بالشجاعة"[39]، لأن المعتزلة استطاعوا أن يؤلبّوا كثيرا من قبائل بربرية زناتية ضد المملكة الرستمية[40]، فبعث له أهل جبل نفوسة أربعة علماء هم مهدي النفوسي الويغوي وأيوب بن عباس والثالث محمد بن يانس، والرابع ورد ذكره عند الدرجيني باسم أبي الحسن الأبدلاني[41]، فلمّا وصولوا تاهرت واستقبلهم الإمام عبد الوهاب، قال مهدي للإمام : "أما أنا يا أمير المؤمنين، فقد كفيتك أمر المبارزة، إن شاء الله". وقال محمد بن يانس: "أما أنا يا أمير المؤمنين، فقد كفيتك فنون

التفاسير إن شاء الله"[42]. ممّا يبين أنهم كانوا على استعداد لمناظرة المعتزلة ونصرة إمامهم عبد الوهاب، وكذلك كانوا على استعداد لمجابهتهم بالقوة.

نخلص مما سبق أن هذه المناظرات كان يقصد منها استجلاء الحقائق وتفنيد آراء المعتزلة والشيعة وغيرهم، وبالتالي القضاء على بدعهم.

ب. **التآليف:** عرف المغرب الإسلامي في هذه الفترة (من النصف الثاني إلى أواخر الثالث الهجري) حركة نشطة في مجال التآلف، فقد صنّف العلماء والفقهاء المغاربة تأليف في شتى مناحي العلم والمعرفة، وكانت أغلب هذه المؤلفات التي وردت في كتب التراجم والطبقات في الفقه وأمور الدين بصفة عامة، نتيجة شغف المغاربة للاستزادة من تجربة كبار فقهاء وعلماء المشرق الإسلامي في العلوم الدينية في ذلك الوقت. إضافة إلى كتب في التاريخ واللغة العربية والطب. وقد ورد ذكر بعض هذه المؤلفات في ثنايا الحديث عن العلوم المختلفة.

لاشك أن أهم كتاب ألّف في هذه الفترة، وكان له الأثر البالغ في نفوس المغاربة هو "المدوّنة" للإمام سحنون. فلما ذهب هذا الأخير إلى مصر عام 178هـ/793م تلقى العلم على تلاميذ الإمام مالك بن أنسن منهم عبد الرحمان بن القاسم وبن وهب وأشهب. والمدوّنة مصنّف جامع وشامل يزيد كثيرا عن موطّأ مالك، ولو أنه يعتمد عليه.

وقام الفقيه المغربي أبو محمد عبد الله بن أبي زيد باختصار مصنّف سحنون هذا وعنونه بـ "مختصر المدوّنة".

أما كتاب "الأسدية" الذي ألّفه أسد بن الفرات، فهو عبارة عن مسائل على مذهب الإمام مالك بن أنس طرحها أسد على تلميذ مالك بن القاسم وأجابه عنها، حينما زار أسد مصر.

وظلّت الأسدية هي المرجع الأساسي لمذهب مالك بالمغرب، إلى أن جاء الإمام سحنون بالمدوّنة التي أضافت عدّة مسائل على الأسدية، وأصبحت هي المعتمدة بالمغرب.

ومن الأعلام المغاربة الذين برزوا في ميدان التأليف في العلوم الدينية كذلك نذكر محمد بن سحنون الذي كان غزير التأليف، من تصانيفه "كتاب الجهاد" وكتاب "المسند في الحديث" وكتاب "تفسير الموطأ" وكتاب "الحجة على النصارى" وكتاب "الإيمان والرد على أهل الشرك" وكتاب "غريب الحديث" وكتابه المشهور "آداب المعلّمين"[43]، وله ايضا كتاب "الجامع" وهو أكبر مؤلفاته حيث جمع فيه فنون العلم والفقه، وهو يزيد عن المائة جزء، عشرون جزءا منها في السيّر، وخمسة وعشرون جزءا في الأمثال، وعشرة أجزاء في آداب القضاء، وخمسون جزءا تتحدث في الفرائض، وثمانية أجزاء تتحدث عن التاريخ وطبقات الرجال، والكتاب يعد إجمالا عبارة عن دائرة معارف شبه شاملة للعلوم التي كانت سائدة في ذلك العصر[44]؛ ولم يصلنا من كتب محمد بن سحنون هذه إلا كتابه "آداب المعلّمين" والبقية تعدّ مفقودة.

وألّف البهلول بن راشد ديوانا في الفقه على مذهب مالك[45]. كما ألّف محمد بن إبراهيم بن عبدوس كتاب "التفاسير" فسّر فيها أصول الفقه، كتفسير كتاب "المرابحة" وكتاب "المواضعة" وكتاب "الشّفعة" وكتاب "الدور" كما ألّف كتبا في الفقه سمّاها "المجموعة في فقه مالك وأصحابه"[47].

ونذكر تآليف لأبي محمد بن عبد الله بن ابي زيد منها كتاب "المختصر للمدوّنة" وكتاب "الرسالة" وكتاب "الذب عن مذهب مالك" وكتاب "المناسك"، وكتاب "شرح مسألة الحبس" وكتاب "إعجاز القرآن" وغيرها[48]. وقد انتشرت "الرسالة" في سائر بلاد المسلمين، منها العراق واليمن والحجاز والشام ومصر وبلاد المغرب والأندلس وبلاد النوبة وصقلية وبلاد السودان. و"الرسالة" في أصلها حوت عقيدة أهل السنّة والفروض، وتناولها المفسّرون بأكثر من مائة شرح، كما ترجمت إلى كثير من اللغات الأجنبية[49].

وصنّف يحي بن عمر الكناني (ت 289هـ/901م) ما يربو عن أربعين كتابا في الحديث والفقه والرد على أهل البدع، وفي فضائل المرابطة، ومنها كتاب هام هو "أحكام السوق" بين فيه نظام المدائن في الإسلام ونظام الحسبة،

ويعد هذا المصنّف - حسب حسن حسني عبد الوهاب- أقدم كتاب في أصول الحسبة وأحكامها[50].

وكان لعلماء الدولة الرستميةتآليف وافرة في شتى مجالات العلم، فهذا العالم عمروس بن فتح المساكني "قد وضع تصميما لتأليف موسوعة علمية على طريقة مبتكرة في ذلك الحين، بين فيها الأحكام التي استخرجت من الكتاب، والأحكام التي استخرجت من السنة، والأحكام التي استخرجت من الإجماع، والأحكام التي استخرجت من القياس"[51]، إلا أنه توفي قبل انجاز هذا العمل.

وألف علماء جبل نفوسة في مجال الفنون والموسوعات العلمية "فقد اجتمع سبعة من علمائه الأعلام واشتركوا في وضع أكبر موسوعة في الشريعة الإسلامية قسّموهاإلى أبواب، فكل عالم منهم تولى في الأبواب التي يتقنها، وهذه الموسوعة هي "ديوان الأشياخ" في خمسة وعشرين جزءا"[52]. ويدخل هذا النوع من التآليف في باب التأليف الجامعي، حيث يختص كل عالم في الفن أو العلم الذي يتقنه.

وهؤلاء الأعلام الذين ألّفوا هذه الموسوعة النفيسة هم أبو عمران موسى بن زكرياء، وأبو عمر النميلي، وعبد الله بن مانوج، وأبو زكرياء يحي بن جرناز، وجابر بن سدرمام، وكباب بن مصلح، وأبو مجبر توزين، وهؤلاء كلهم من جبل نفوسة، كذلك من موسوعات جبل نفوسة في الشريعة الإسلامية نذكر (ديوان العزابة) الذي ألفه عشرة من العلماء، ويقع في عشرة أجزاء وهو موجود مخطوطا في خزائن وادي ميزاب[53].

وكان لوفرة هذه التآليف أن انتشرت المكتبات العامة والخاصة، والتي كانت لها دورها البارز في الحياة الثقافية بالمغرب، فقد كان لأبي العرب التميمي مكتبة حوت ثلاثة آلاف وخمسمائة كتاب خطّها بنفسه[54]. وكانت المعصومة إحدى المكتبات الرئيسية بتاهرت. وقد دعّمت هذه المكتبة بمدوّنة أبي غانم الفقهية[55]. وعند استيلاء الفاطميين على تاهرت أحرقوا هذه المكتبة بما كانت تزخر به من كتب ومنها هذه المدوّنة[56].

على أن حرق مكتبة المعصومة وما كانت تزخر به من كتب مذهبية وفنية، لا يمكن اعتبارها – أي هذه الكتب - هي الأمهات، وبضياعها ضاعت الأصول، لأن الموطن الثاني لأمهات الكتب المذهبية والفنون كان في قرى جبل نفوسة وحواضره. وعليه فما فقد في تاهرت بعد سقوطها يكون له دون شك أصل في منطقة نفوسة[57].

نخلص مما سبق أن المغاربة كان لهم باع في التآليف وتصنيف الكتب في شتى مجالات العلم والفنون، تترجمها الأعداد الهائلة من تلك الكتب التي ألّفها علماء وفقهاء جمعوا بين التعليم والتأليف، وقد برز المغاربة في هذه الفترة بالاشتراك في تآليف شبه موسوعية كان لها أثرها الكبير في الحياة الثقافية في تلك الفترة.

- الهوامش :

1) VONDERHEYDEN, M. La berberie orientale sous la dynastie des Ben oul – Aghlab (800-909), Librairie orientaliste, Paul Genthaer, Paris, 1927, P 120.

2) أبو العرب (محمد بن أحمد بن تميم القيرواني)، طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر، 1968من ص 159.

3) ابن الفرضي (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي)، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، تحقيق عزت العطار الحسيني، نشر مكتبة المثقف، بغداد، 1954م، ج1 ص 407 و ج2 ص 52.

4) الضبي (أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة)، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكتاب العربي، مطابع سجل العرب، القاهرة، 1967م، ص ص 447 – 448. وابن مسرهد هذا هو مسدد بن مسرهد بن مسربل أبو الحسن الأسدي البصري، وهو محدّث وهو أول من صنّف المسند في الحديث بالبصرة (ت 228هـ/843م). أنظر: الزركلي (خير الدين، الأعلام، ط3، بيروت 1969م، مجلد 7، ص215.

5) المالكي (أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله)، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، ط1، نشر حسين، تونس، طبع مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1951م، ج1 ص288.

6) كرو (أبو القاسم)، عصر القيروان، ط1، دار المغرب العربي، تونس، 1973م، ص34.

7) Mohamed Talbi, La relation entre l'Ifriquia et l'Espagne musulmane au III, IX siècle. In. Les cahiers de Tunisie, revue des sciences humaines, faculté des lettres et des sciences humaines, 1er et 2ème trimestre, N°69-70, Tome 18, Tunis, 1970, P.44.

8) Mohamed Talbi, op, cit, P.44.

9) أبو العرب، المصدر السابق، ص222، وعياض (أبو الفضل اليحصبي السبتي)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعيان مذهب مالك، تحقيق د.أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، طرابلس، ليبيا، د.ت، ج1 ص326.

10) المالكي، المصدر السابق، ج1 ص173. وحسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، ط3، دار الكتب الشرقية، تونس، د.ت، ص67.

ويعد علي بن زياد مؤسس المدرسة الفقهية التونسية، وموطّد مذهب الإمام مالك بإفريقية، وهو أول من أدخل موطأ الإمام مالك إلى المغرب. المالكي، المصدر السابق، ج1 ص234.

11) دائرة المعارف الإسلامية: مادة "أسد بن الفرات" ج2 ص105.

12) VONDERHEIDEN, M.op.cit.P121.

13) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح)، البلدان، منشورات المطبعة الحيدرية، ط3، النجف، 1377هـ/1957م، ص353، المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، 1877م، ص228.

14) ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، نشر موتيلنسكي، باريس، 1907، ص47.

15) دبوز (محمد علي)، تاريخ المغرب الكبير، ط1ن دار الفكر، دمشق، 1404هـ/1984م، ج3 ص384.

16) دبوز، المرجع نفسه، ج3 ص 384.

17) الخشني (أبو عبد الله بن حارث القروي)، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، نشر وطبع عزت العطار الحسيني، 1372هـ، ص204.

18) Mohammed Talbi, L'Emirat Aghlabide (184-296/800-909), Librairie d'Amérique et d'Orient. André Maisonneare, Paris 1966. P361.

19) دبوز، المرجع السابق، ص381.

20) الشماخي (أبو العباس أحمد بن سعيد)، كتاب السير، طبع بالقاهرة، سنة 1301هـ، ص288، الدرجيني (أبو العباس أحمد بن سعيد)، طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، د.ت، ج2 ص331.

21) ابن تاويت (محمد)، الأدب المغربي، ط2، دار الكتاب، بيروت، 1969م، ص112.

22) عياض (أبو الفضل اليحصبي السبتي)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق د.أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، طرابلس، ليبيا، د.ت، ج3 ص9.

23) عياض، المصدر نفسه، ج3 ص9.

24) الدرجيني، المصدر السابق، ج1 ص33، الشماخي، المصدر السابق، ص279.

25) الشماخي، المصدر السابق، ص279.

26) ألفرد (بل)، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ترجمة عبد الرحمان بدوي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، ص162.

ويقول عنه ابن خلدون:"قرأ مذهب الإباضية من الخوارج وصدق فيه، ثم لقي عمار الأعمى الصفري النكار، فتلقى عنه من مذاهبهم"، أنظر: ابن خلدون (عبد الرحمان بن محمد)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1958م، ج6 ص210 .

27) ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973م، ص25.

28) ابن الآبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي)، الحلّة السيراء، تحقيق وتعليق حسين مؤنس، ط1، نشر الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1963م، ج1 ص55.

29) ابن تاويت، المرجع السابق، ص111.

30) ابن تاويت، المرجع السابق، ص81.

31) أبو العرب، المصدر السابق، ص88.

32) المالكي، المصدر السابق، ج1 ص116، حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، القسم الثالث، جمع وإشراف محمد العروسي المطوي، نشر مكتبة المنار، تونس، 1972م، ص 46.

33) عياض، تراجم أغلبية، تحقيق محمد الطالبي، نشر الجامعة التونسية، تونس، 1968م، ص 117.

34) المالكي، المصدر السابق، ج1 ص236، عياض، ترتيب المدارك، ج2 ص 610.

35) عياض، المصدر نفسه، ج1 ص 390.

36) أحمد بكير محمود، مقدمة كتاب ترتيب المدارك، ج1 ص 11.

37) الدباغ، المصدر السابق، ج2 ص 177.

38) الدباغ، المصدر السابق، ج2 ص 205.

39) أبو زكريا (يحي بن أبي بكر)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، ط3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م، ص 102.

40) Lewicki, Tadeuz, Etudes Ibadites Nords Africaines. Partie 1. Liste anonyme des Sayhs Ibadites et des Localités du GabalNafusa contenue dans le sayar al -Masayah « (VI - XII) warazawa.1955. P.29.

41) الدرجيني، طبقات المشائخ، ج1ص 58، وورد اسمه خطأ باسم ابي محمد عند ابي زكريا.

42) أبو زكريا، المصدر السابق، ص 103.

43) عياض، المدارك، ج3 ص 105- 106 - 107، ابن فرحون (برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد اليعمري)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ط1، 1351هـ، ص ص 235-236. وذكر الدباغ أن محمد بن سحنون شرح أربعة كتب من المدوّنة منها كتاب "المرابحة"، أنظر، معالم الإيمان، ج2 ص18.

44) حجازي (عبد الرحمان عثمان)، المذهب التربوي عند ابن سحنون، ط1، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 1406هـ/1986م، ص34.

45) المالكي، المصدر السابق، ج1 ص 132.

46) عياض،المصدر السابق، ج3 ص ص 120 - 121، ابن فرحون، المصدر السابق، ص238، الشيرازي (أبو إسحاق)، طبقات الفقهاء، د.ت.ط، بغداد، 1356هـ، ص 134، ح.ح عبد الوهاب، ورقات، ص50.

47) الخشني، المصدر السابق، ج1 ص 182.

48) الدباغ، المصدر السابق، ج3 ص 137، ابن فرحون، الديباج، ص 137، عياض، المصدر السابق، ج ص ص 138، 139.

49) ح.ح عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 54.

50) ح.حعبد الوهاب، ورقات، ص ص 50- 51، ويشير حسن حسني عبد الوهاب أن لديه نسخة كاملة من هذا الكتاب "أحكام السوق" حققها وشرحها، إلا أننا لم نعثر عليها.

51) الباروني (أبو الربيع سليمان بن الشيخ عبد الله النفوسي)، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، د.ت، ص 252.

52) دبوز، تاريخ المغرب الكبير، ج3 ص 388، ويذكر نفس المؤلف أنه توجد نسخ من هذا الديوان مخطوطة في وادي ميزاب بجنوب الجزائر، نفس المرجع، ص 389.

53) دبوز، المرجع السابق، ج3 ص 389.

54) الدباغ، المصدر السابق، ج3 ص 43، عياض، المصدر السابق، ج 3 ص 335، ابن فرحون، المصدر السابق، ص 250، الخشني، المصدر السابق، ج1 ص 226.

55) الدرجيني، طبقات المشائخ، ج2 ص 323، الباروني، المرجع السابق، ص 252.

56) علي يحي معمر، الإباضية في موكب التاريخ، مطبعة الاستقلال الكبرى، ط1، القاهرة، 1964م، ص 139.

57) لقبال موسى، من قضايا التاريخ الرستمي الكبرى، مجلة الأصالة، عدد 41، يناير 1977م، ص 57.